إضاءة

لا يُمكن فصل واقع الإبادة الصهيونية في غزّة عمّا شهدته المدن العربية، خصوصاً في منطقتَي شرقي المتوسّط وبلاد ما بين النهرين، من تدمير استعماري مُمنهج بدأ منذ مطلع القرن الماضي، وتكثّف في محطّات عديدة؛ من بينها غزو العراق عام 2003

معاذ حسن

من بيروت وبغداد إلى القدس وغزّة
المدينة العربية في مواجهة التدمير

تتتالى يومياً، منذ قرابة خمسة أشهر، مشاهد الصور المأساوية الكارثية للتدمير الممنهج لمدن قطاع غزّة الذي يسكنه أكثر من مليوني إنسان، سواء بالقصف الجوّي أو بالتوغّل البرّي الإسرائيلي، بتشجيع سياسي ودعم لوجستي على الأرض من أغلب حكومات الغرب الأميركي والأوروبي، مع ما يرافق ذلك إقليمياً من موقف إيراني مريب، وتنديد حكومي عربي رسمي لا يتناسب مع حجم الكارثة التي تقع على المدنيّين الفلسطينيّين، بأرقام الشهداء المهول والتي تتزايد يومياً، خصوصاً بين الأطفال والنساء.

تُعيدنا هذه المشاهد بالذاكرة إلى ما حدث للمدن العربية وما زال يحدث، منذ الغزو الأميركي للعراق عام 2003، وما رافقه من قصف جوّي عشوائي تدميري على بغداد، لمبرّرات واهية جدّاً، ثم ما استتبع ذلك، منذ 2011، من قصف وتدمير عشوائي للعديد من أعرق المدن العربية وأقدمها في سورية والعراق واليمن وليبيا والسودان، قصفٌ لا يزال مستمرّاً حتى اليوم بفعل قوى خارجية وداخلية بسبب الانفجارات المجتمعية الكبيرة التي حدثت فيها. لا يُستثنى من ذلك الدمارُ الكبير الذي لحق ببيروت وطرابلس طيلة الحرب الأهلية (1975 - 1990) في لبنان الذي لا يزال مُهدّداً بتجدُّد هذه الحروب التدميرية، لأنّ مقدّماتها ما زالت موجودة في نسيجه المجتمعي وبُنيته السياسية.

يستدعي ذلك أسئلة عديدة وكبيرة: لماذا كلّ هذا الحقد الدفين على المدن العربية؟ لماذا هذا الاستهداف التدميري المُمنهَج للمدينة العربية في زمننا المُعاصر، خصوصاً في منطقتَي شرقي المتوسّط أو ما كانت تُسمّى بلاد الشام، وبلاد ما بين النهرين، العراق اليوم؟

بعيداً عن الأسباب السياسية الحديثة والراهنة، بتفاصيلها المتشابكة والمعقّدة، والتي تشكّل غطاءً واهياً لهذا الاستهداف، سنحاول الكشف، إن جاز التعبير، عن الخلفية التاريخية العميقة التي ولّدت جُرحاً نُرجسياً تاريخياً كبيراً عند العديد من القوى في العصور القديمة والوسيطة، ما زال يفعل فعله حتى اليوم.

في هاتَين المنطقتَين، إضافةً إلى مصر، قامت بعض أقدم الحواضر البشرية المدنيّة في التاريخ، بعد أن استوطنت فيها على الدوام الجماعات والقبائل المهاجرة من عدّة مناطق صحراوية من أبرزها جزيرة العرب، فظهرت الإرهاصات الأولى لمدن أريحا وغزّة والقدس ودمشق وحلب والرقّة والموصل وبيروت والإسكندرية وجبيل وصيدا وغيرها الكثير. ورغم الغزوات والحروب التي استمرّت بين مختلف الممالك والإمبراطوريات، بقيت تلك المدن تتطوّر وتلعب دورها الاقتصادي التجاري والثقافي بين مختلف الشعوب والجيوش التي مرّت بها.

وعندما دخل العرب المسلمون هذه المناطق ومدنها، وبعد أن استتبّ لهم الأمر، عملوا على توحيد هذه المناطق تحت راية الدين الجديد، وأطلقوا مبادرات كلّ الجماعات الدينية والإثنية الأقدم في مجالات التجارة والعلوم والثقافة، مع استمرار فتوحاتهم لأقاليم أخرى، في مختلف الجهات في الشرق والغرب بالآلية نفسها، فجرى بذلك، طيلة قرون العصر الوسيط، ربطُ حضارات العالَم القديم بعضها ببعض، وإعادة إحياء التراث الفلسفي الإغريقي اليوناني القديم بترجمته إلى العربية، في أقدم عاصمتَين عربيّتَين: دمشق الأموية وبغداد العباسية.

ونتج عن ذلك مخاضٌ ثقافي فكري كبير ومديد استمرّ قروناً، من القرن السابع إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ظهرت من خلاله أسماء هامّة من مختلف القوميّات والإثنيّات، يجمعها الانتماء إلى مجال الثقافة العربية الإسلامية، ما زالت تشغل رجال الفكر والثقافة في عالمنا الحديث والمعاصر، مثل: الكندي، والفارابي، وابن الهيثم، وجابر بن حيّان، وأبي بكر الرازي، والبيروني، وابن سينا، وابن الراوندي، والحلّاج، وجلال الدين الرومي، وابن عربي، وابن حزم، والجاحظ، وأبي حيّان التوحيدي، وابن رشد، وابن خلدون، والإمام الغزالي، وأبي العلاء المعرّي، والمتنبّي، وأبي تمّام، والسلسلة تطول جداً، وهذه الأسماء كلّها وُلدت في إطار الحضارة العربية الإسلامية الوسيطة، في مختلف مدنها التاريخية العريقة والقديمة التي بقيت راسخةً رغم كلّ الحروب والمِحَن التي مرّت على المنطقة في هذا التاريخ القديم والطويل، في الفترة نفسها التي كانت فيها مراكز التحكّم المجتمعي في الغرب الأوروبي هي قِلاع الرِّيف التي يسكنها الأمراء والملوك وكبار الإقطاعيّين، قريباً من جماهير الفلّاحين المحكومين بطاعة عمياء لأسيادهم هؤلاء بمؤازرة من سلطة الكنيسة وطغيانها الظلامي آنذاك. تغيّرت المعادلة جذرياً بالتأكيد في العصور الحديثة في أوروبا لمصلحة الحداثة والتمدّن، وبدأت تظهر المدن الحديثة والكبيرة في الغرب مع التطوّر الرأسمالي الجديد ومع بدايات الثورة الصناعية الأولى منتصف القرن التاسع عشر.

لكنّ المدينة العربية، ورغم عصور الانحطاط والتراجُع المديدة التي دخلتها منذ القرن الخامس عشر للميلاد، ظلّت تختزل كَمُوناً كبيراً من إمكانيات التطوّر والتقدّم، التي بدأت إرهاصاتها الأولى بالظهور مُجدّداً منذ أواخر القرن الثامن عشر.

واستمرّت في الظهور والتبلور حتى أوائل القرن العشرين، عندما تجلّت مع أهمّ عقول الإصلاح الديني الإسلامي أوّلاً، مثل رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، ومن ثم مثقّفي عصر النهضة العربي الثقافي ومفكّريه ثانياً، الذين استمرّوا في الظهور إلى مراحل الدولة الوطنية أيضاً، بعد جلاء المُستعمِر منتصف القرن العشرين، مثل: جرجي زيدان، وشكيب أرسلان، وجبران خليل جبران، ومحمد كرد علي، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وزكي نجيب محمود، وفؤاد زكريا، وعبد الرحمن بدوي، وعلي الوردي، وهشام شرابي، وجورج طرابيشي، وإدوارد سعيد، وسمير أمين، وصادق جلال العظم، وفارس الخوري، وقسطنطين زريق، ونقولا زيادة، وحسين مروة، وادونيس، وطيّب تيزيني، ونصر حامد أبو زيد، ومحمد أركون، وعبد الله العروي، وأحمد شوقي، ومعروف الرصافي، والسلسلة هنا، أيضاً، تطول جداً.

(كاتب من سورية)

> تجريفُ ممنهج استهدف أعرق الحواضر الثقافية العربية
>
> أثبتت تلك المدن قدرتها على الانبعاث الحضاري من جديد

جانب من الدمار الذي الحقه العدوان الإسرائيلي بـ«قصر الباشا» في غزّة، 9 شباط/ فبراير 2024 (Getty)

ثأرٌ استعماري قديم

تبدو القوى الاستعمارية في سلوكها التدميري تجاه المُدن العربية، الذي بلغ ذروة غير مسبوقة في الوحشية خلال العدوان الصهيوني الحالي على غزّة، مدفوعةً بثأر قديم من الإرث الحضاري العربي، ومن مدن ما زالت تختزن طاقات بشرية كبيرة؛ خشيةَ أن تظهر هذه الإمكانات مرّةً أُخرى على ساحة المُشاركة الفاعلة في مسيرة الحضارة العالمية الحديثة والمعاصرة. لعلّها محاولة لقتل الروح الوثّابة في هذه المنطقة.

قراءة

فالتر بنيامين وجيرشوم شوليم جذور اليهودية
بين صهيوني وماركسي

يجمع الكتاب مراسلات بين يهوديّين المانيّين غادرا بلدهما مع صعود النازية؛ وكان أحدهما صهيونياً، بينما ظلّ الآخر منحازاً إلى الماركسية

عباس بيضون

«فالتر بنيامين، جيرشوم شوليم، مراسلات 1922 - 1940» عنوان الكتاب الصادر عن «دار الجمل» بترجمة وتقديم عبد القادر مرزاق. يضمّ الكتاب أيضاً مقدّمة ضافية بتوقيع أنسون رابينباخ. المقدّمتان، بخاصة تلك التي لرابينباخ، قراءتان معمّقتان، لا للمراسلات وحدها، لكن أيضاً لسيرتي المراسلَين وفكرهما.

المراسلان، كما نعلم، يهوديان ألمانيان، أقضى بهما صعود النازية الى مغادرة ألمانيا. بنيامين إلى باريس ومدن أُخرى، وشوليم إلى فلسطين بالدرجة الأولى. كان شوليم صهيونياً، ولكن على طريقته، فيما بنيامين الذي «غازل الصهيونية»، شأنه شأن يهود وقته، وجد أنّها استجابة غير كافية، وأنّ «اليهودية ليست بأية حال غاية في ذاتها». لم يمانع بنيامين زيارة شوليم في فلسطين، التي بقي هذا اسمها في رسائل شوليم. لكنّه لم يُصرّ على ذلك، وبقي متردّداً حياله، ولم يُنجزه حتى وفاته منتحراً. كان شوليم منكبّاً طول الوقت على دراسة التصوّف اليهودي (القبالا)، وشغل في فلسطين كرسيّ هذا التصوّف. أمّا بنيامين، الاسم البارز في مدرسة فرانكفورت التي كانت تغلّب عليها ماركسيات خاصّة، فقد كان، على طريقته أيضاً، منحازاً إلى الماركسية، وربما كان لعلاقته ببريخت المسرحي والشاعر الألماني، أثرٌ في ذلك.

إلّا أنّ بنيامين، الذي رُفضت في الاتحاد السوفييتي دراسته عن غوته، لم يكن متحزّباً. حين يتكلّم على «شيوعيته»، لا يمتنع عن وصف الكثير ممّا يصدر عن الماركسية، بالسفاسف، وهُو، في مقام آخر، يَذكر أنّه لا يقيم وزناً للعقيدة، وليس صاحب عقيدة. يمكن أن نجد ذلك جلياً في فكر بنيامين، الذي لا يركن إلى أيّ نظام فكري، ولا يمكن نسبته إلى أي عقيدة، بل إلى أي حقل فكري. في كتاباته ما يمكن ردّه إلى باطنية خاصّة، بحيث إنّها لا تندرج في أي فلسفة. بل هو، بحسب فلاسفة قدّموه، لا يكاد يمتّ إلى الفلسفة. إلّا أنّ الخليط اليهودي، الماركسي، السريالي عند بنيامين، دعا شوليم، في مراسلة إلى إنكار ماركسيته، وإلى اعتباره «لاهوتياً» من نوع خاصّ. يقول شوليم إنّ «أسلوب التفكير الميتافيزيقي لدى بنيامين، وطريقته الماركسية، جعلا منه لاهوتياً انقطعت به السبل في عالم الدنس». يخاطبه، في واحدة من مراسلاته، فيقول إنّ «الحزب الشيوعي سيكشف عنك، دون أدنى شك، قائداً نموذجياً للثورة المضادّة، وبرجوازياً». أمّا شوليم الصهيوني، فقد كانت له أيضاً صهيونيته الخاصّة. لم تعده السياسة إلى الصهيونية، كما قال، بل قادته إليها يهوديته الخاصة أيضاً. يهودية شوليم المستقاة من عمله على التصوّف اليهودي، نوع من القلق الروحي. إذ إنّه هو الداعي إلى تجديد اليهودية انطلاقاً من «القبالا»، لا يزال يتكلّم على ما يسمّيه العدمية الروحية في اليهودية. هذه العدمية تدعوه إلى العودة إلى التقليد، المبدأ الأوّل، الذي لا يضمن الحقيقة، بل إمكانية انتقالها بالتأويل. في هذه العدمية يكون الله مغترباً عن العالم، وعن الخلق نفسه. في قصيدة تعليمية له يظهر الخالق كعامل للعدمية. لا يقترب بنيامين من هذا المفهوم، لكنّه في نظريته عن اللغة، يجد أنّها اليوم ساقطة عن كلمة الله. ذلك ما يؤدّي إلى ما يشبه النفي. اللغة إذاً هي السقوط، وهي لذلك نوع من الانحلال والترهات الساخرة، رغم ما يبقى فيها من كلمة الله الإبداعية. تفكير كهذا ينغرس في الباطنية اليهودية، ويبتعد كثيراً عن الماركسية. تلك هي الجذور اليهودية، التي كان شوليم يتقصّاها في كتابة بنيامين، الذي كان لا يسلّم بها، فهو في نظره، كما هو كافكا، ألماني بقدر ما هو يهودي.

أمّا القاسم المشترك بين الاثنين فهو كافكا، الذي كان، حينها، لا يزال اسماً قلقاً. كافكا، في نظر شوليم، سليل العدمية الروحية اليهودية. لم يكن هذا تماماً رأي بنيامين الذي قرّر أنّ كافكا، يجمع إلى يهوديته الأثر الألماني. إنّه، في نظر شوليم، ابن الوحي، فيما أنّه، في نظر بنيامين، اغتراب عن السفر المقدّس، ونوع من انتزاع الجوانب الهزلية من اللاهوت اليهودي. كافكا، في نظره، لا يزال التلاميذ عنده في نوع من الاغتراب، عن المبدأ الأوّل، عن التقليد.

شوليم في فلسطين، والحرب العربية اليهودية بادئة هناك. لكنّ مراسلات

> رأى بنيامين أنّ كافكا يجمع إلى يهوديته الأثر الألماني

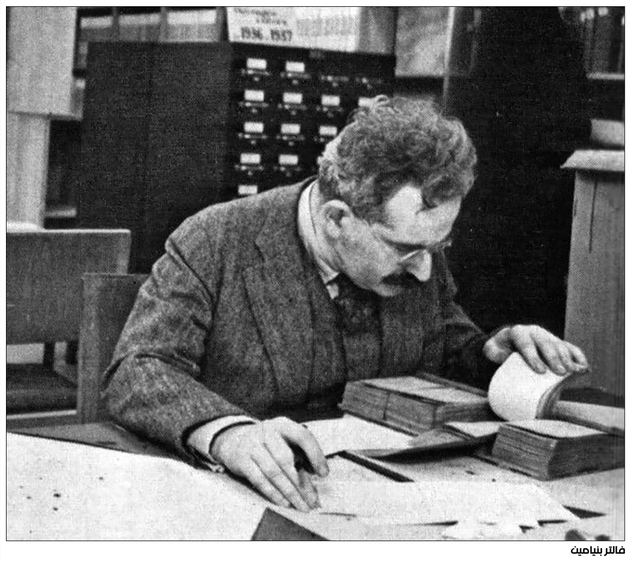

فالتر بنيامين

اليهوديّين قلّما تعرّج على هذا الموضوع. انتمى شوليم إلى «بريت شالوم»، التي تدعو إلى دولة ثنائية من العرب واليهود، لكن هذه الفرقة لم يكن لها حضور جماهيري. لا نقرأ لبنيامين، في مراسلاته شيئاً عن هذا الموضوع. لا يزال شوليم يقول «فلسطين» في رسائله، إلّا أنّه، في كلمة خِتامية، بعد انتحار بنيامين، يذكر لأوّل مرّة كلمة «إسرائيل».

(شاعر وروائي من لبنان)

مشاهدة

من فصول الإرهاب الصهيوني على أرض فلسطين
الخلفيات الفاشيّة التي قادت إلى نكبة 1948

تحالفُ عضوي جمع الصهاينة بالفاشيّة، هذا ما يُثبته شريط بثّته «الجزيرة الوثائقية»، مؤخّراً، بعنوان «شتيرن: الرجل، العصابة، والدولة»

الدوحة ـ العربي الجديد

هل يُمكن لعدوّ عدوّك أن يُصبح حليفاً حقّاً؟ وماذا لو كان هذا «العدوّ» هو النازية أو الفاشية؟ فصلٌ من قصة فلسطين المحتلّة لم يتمّ تأطيره كما ينبغي، يتمثّل في العصابة الصهيونية التي سعت للتحالف مع المانيا النازية وإيطاليا الفاشية رغم الاضطهاد الماضي وأربعينياته، ليهود أوروبا.

«شتيرن: الرجل، العصابة، والدولة» عنوان الشريط الذي بثّته «الجزيرة الوثائقية» في الخامس من آذار/ مارس الجاري، ويتناول قصّة العصابة الصهيونية «الـيحي» ومتزعّمها المُجرم أبراهام شتيرن، وتاريخها الإجرامي الذي يُستعاد اليوم - من غير أن يعني أنه انقطع - على أرض غزّة.

تحدّث في الشريط المؤرّخ إيلان بابيه، الذي أشار إلى أنّ «مجموعة صهيونية داخل عصابة الهاغاناه» أمنت أنّ بريطانيا هي العدوّ الفعلي لها، ومن بين هؤلاء كان أبراهام شتيرن الذي بدأ مع عصابته المُسمّاة «ليحي» بالسطو على ممتلكات الشعب الفلسطيني»، وكذلك الباحث الأميركي توماس سواريز، صاحب كتاب «دولة الإرهاب: كيف قامت إسرائيل على الإرهاب» (2016)، الذي قال إنّ شتيرن هو أحد أخطر وجوه الإرهاب العالمي في القرن العشرين. ومن ناحيته، رأى الناشط المناهض للصهيونية، طوني غرينشتاين، أنّ التحالف مع النازيّة كان قائماً بوضوح، خصوصاً على المستوى التجاري من خلال عدد من الاتفاقيات. ويُظهر الشريط أنّ المراسلات كانت قائمة مع النازيّين من خلال «السفارة الألمانية» في بيروت.

ويذهب بابيه إلى أنّ «معاداة السامية التي تأسّست عليها النازية، كانت معروفة عند هذه الأوساط الصهيونية، ولم يكن الأمر مجهولاً لهم. لكنّ ذلك لم يردعهم على الإطلاق، وراوا فيه أداةً لتحقيق غايتهم باستكمال تهجير اليهود من أوروبا. فضلاً عن هذا، لا يُمكن إنكار تأثر شخصيات مثل بن غوريون بالأيديولوجيا الفاشيّة». وعلى هذا الأساس عُقدت «اتفاقية القدس» بين شتيرن والفاشيّين بإيطاليا، وفقاً لسواريز، والتي سعت العصابة من خلالها إلى أن يكون الفاشيّون الأداة التنفيذية لتهجير يهود أوروبا إلى فلسطين بالقوّة.

يُضيء الشريط أيضاً على العمليات الإرهابية التي نفّذتها العصابة، وأبرزها نسف السرايا القديمة في حيفا في الرابع من نيسان/ إبريل 1948، و«مجزرة دير ياسين»، البلدة الواقعة قرب القدس، والتي ارتكبت بعد ذلك التاريخ بخمسة أيام، حيث قُتل أكثر من 360 فلسطينياً أغلبهم من النساء والأطفال، ويعدّها الباحثون عاملاً تأسيسيّاً للإبادة الجماعية والتطهير العرقي في فلسطين.

وفي هذا السياق، يفنّد بابيه، صاحب كتاب «التطهير العرقي في فلسطين» (2006)، الدعاية الصهيونية، مُبيّناً أنّ «الجيوش العربية تدخّلت في الخامس عشر من أيار/ مايو 1948، من أجل وقف التطهير العرقي الذي أدّى إلى إخلاء الاف القرى، وتهجير أكثر من 750 الف فلسطيني».

ويعلّق سواريز على هذا بأنّ «الصهاينة لم يكتفوا بسرقة فلسطين من أهلها فحسب، بل نقلوا العقيدة النازية منهجياً، بمَن كانوا ضحايا للمحرقة، وطبّقوها ضدّ الشعب الفلسطيني»، ويختم بابيه الوثائقي بالقول: «يستحيل أن تكون هناك دولة مع أو للصهيونية، فالأخيرة لا تقود إلّا إلى شيء وحيد: العصابة».

> اعتبر الصهاينة الفاشيّة أداةً لتهجير يهود أوروبا إلى فلسطين بالقوّة

نساء فلسطينيات يُحيين ذكرى «مجزرة دير ياسين»، 9 نيسان/ إبريل 1999 (Getty)

فعاليات

حتى الخامس من آب/ اغسطس المقبل، يتواصل في غاليري «M7» بالدوحة معرض **التصميم العربي الآن** الذي افتتح نهاية الشهر الماضي. يضيء المعرض تجارب مختلفة في العالم العربي تُبيّن التعبيرات المادية للثقافة وكيفية الاستخدام البيئي والمبتكر للمواد، واعتبارات التقنية والتفاصيل والنمط والجمالية.

ضمن ورشات ينظّمها «المركز العربي البريطاني» في لندن بعنوان **تصميم المعارَضة: الإبداع والمقاومة العربية**، تُعقد جلسة، عند الخامسة من مساء الاثنين المقبل، حول توظيف الكاريكاتير تاريخيا ضدّ السلطة، وكيف اسكتت الأنظمة الفنّانين الذين يعارضونها، بالعودة إلى مجلّة «ابو نضارة» التي تأسّست عام 1877 في مصر ورسومات الفنّان الفلسطيني الشهيد ناجي العلي.

ذاكرة اجيال عنوان معرض افتتح بداية الشهر الجاري في «المتحف الوطني للفنّ الحديث والمعاصر» بتونس العاصمة، ويتواصل حتى نهاية الشهر الجاري. ينقسم المعرض إلى ثلاثة اجزاء تُمثّل تيارات الحركة التشكيلية التونسية بين عامَي 1894 إلى 2004، من خلال 300 عمل فنّي من رسم ونحت وحفر ونسيج وغيرها.

تُقدّم فرقتا **ابن عربي** و**الزاوية للسماع العرفاني**، عند التاسعة والنصف من مساء الاثنين المقبل، في «دار الاوبرا» بعُمان امسية للإنشاد والمديح. يتضمّن العرض اداء ابتهالات دينية وقصائد لشعراء المتصوّفة في التراث الاسلامي، من بينهم ابن عربي، وابن الفارض، ورابعة العدوية، والسُّهروردي.